د. بلخضر طيفور

جامعة ابن خلدون - تيارت / الجزائر

محاضرات في ابستيمولوجيا علم السياسة

****

أنماط تطور المعرفة + تطور علم السياسة

- ✓ **أولا: أنماط تطور المعرفة**
  - أ- المنظور التراكمي
  - ب - منظور القطيعة المعرفية
- ✓ **ثانيا: تطور علم السياسة**

أولا: أنماط تطور المعرفة

اختلفت وجهات النظر في تطور وتفاعل المعرفة بل وحتى في المعرفة ذاتها، لكنها لم تخرج عن نطاق البحث في طبيعتها من حيث مميزاتها، أو البحث عن مصدرها إن كان عقليا أو تجريبيا ثم عن قيمتها من حيث تصديقها؛ ويثير التأمل في طبيعة المعرفة جملة من التساؤلات، حاول الكثير من المفكرين الإجابة عنها لكنهم لم يصلوا إلى اتفاق حول ذلك على الرغم من قدم تلك المحاولات، التي دار معظمها حول ما يترتب عن العلاقة بين الإنسان ككائن مدرك لما حوله وبين المواضيع التي تُثار والظواهر المحيطة به. وإذا سأل أحد، ماهي المعرفة ؟ قد يبدو العلم كإجابة، لأن أثره هائل وضخم على العالم المعاصر، ومنهجه منطقي وصارم ومُحصّن من الأهواء الذاتية، ومبني على التجارب الثابتة والمكررة وتنبؤاته سليمة لعديد وقائع العالم، لكن هل بالعلم وحده يمكن أن تستقيم الحياة، ماذا عن أسئلة من قبيل: لماذا ؟ وما الغاية من المعرفة ...إلخ.[1]

صحيح أن المعرفة العلمية نجحت وسادت وأصبحت الحل للكثير من المعضلات، وأصبحت ظواهرها تتحكم حتى في الإنسان الذي طورها، فانسياب المعلومات، التكنولوجيا بأنواعها، طمس الحدود الجغرافية وحتى الإنسانية بواسطة شبكات الإنترنت ... إلخ، لكن ماذا عن القانون، الأعراف والتقاليد، الثقافة وباقي أشكال الحياة الإجتماعية؛ إذن فمن المهم جدا معرفة أكثر عن الحيز الذي تدور في فلكه المعرفة، وإعادة تمحيص المعرفة نفسها، وتموجاتها وأنماط تطورها.[2] ويبدو واضحا من الناحية التاريخية أن نمو المعارف العلمية والقدرة المتزايدة

---

[1] International Encyclopedia of the Social Sciences, (William A. Darity), 2nd edition, op. cit, vol.04, p 277.

[2] Ibid, p 278.

على استخدام المناهج العلمية، مرتبط ارتباطا وثيقا بنمو الإتجاه في النظر إلى الكون والكوزمولوجيا العقلانية*، فكثير من العلماء الممارسين كانوا عقلانيين، وكل من يذهب من العلماء أن المعارف الصحيحة هي فقط تلك التي نصل إليها عن طريق المنهج العلمي إما أن يكون بالضرورة عقلانيا أو من المشككين؛ والعلم سواء أخذناه بمعنى نسق المعارف المتراكمة أو بمعنى أسلوب حل المشكلات القائمة والآنية أي استخدام المنهج العلمي فهو لا علاقة له بما هو غير ملاحَظ أي ما هو معياري،[1] ويعارض بعض المفكرين المحدثين وجهة النظر هذه ويرون أنها تعارض التقليد الغربي العريق الذي يوجب على الإنسان أن يستخدم عقله ليتفهم خبرته في شمولها ككل.[2]

ومما يُلاحظ في القرن العشرين أنه حدثت ثورة كمية وكيفية هائلة في مجال المعرفة بكل أنواعها، ولو نظرنا إلى الأمر من الزاوية الكمية الخالصة لتبين أن معدل نمو المعرفة العلمية قد تسارع بصورة مذهلة، إذ تقول الإحصاءات أن كمية المعرفة البشرية تتضاعف وتراوحت بين عشر وخمسة عشرة سنة، وهو ما كان يستغرق في الماضي المئات من السنين، بل تطور الأمر في نهاية القرن العشرين وتقلصت الفترة إلى خمس سنين، ففي كل ربع ساعة هناك بحث جديد حسب الإحصائيات، ولو أنه هناك فرق بين كمّية المعرفة وكيفيتها.[3]

هذا من ناحية علمية ومعيارية المعرفة، أما فيما يخص تطور هذه المعرفة أو أنماط تراتبها التاريخية أو الشكل الذي أخذته في تطورها، هل كان تطور يُفضي فيه كل نمط معرفي إلى إزاحة ما قبله من معارف، أي أن لكل مجتمع معرفي خصائصه تميزه عن المجتمع الذي سبقه وهذا هو طرح المفكر الفرنسي فوكو (Michel Foucault)، أو في شكل ثورات معرفية مثلما ذهب إليه بعض المفكرين كمؤرخ تاريخ تطور العلم الأمريكي كوهن، أو أن المعارف تطروت في شكل قوالب معرفية تسود لفترة تكون إضافة لفترة لاحقة دون إزالتها على نمط تراتب معرفي متراكم وفق خط متصل.

وهو ما يذهب إليه العالم المجري لاكاتوش (Imre Lakatos) ويطرح نظريته حول تطور المعرفة بمفهوم الأجندات البحثية الفرعية من نظام معرفي ككل، فالمؤيدون لهذه النظرية يرون أن المعرفة تنطلق دائما من المقولات والفروض السابقة، وتتخذ منها قاعدة لاكتشاف حقائق ومعارف جديدة، وما تاريخ العلم والمعرفة سوى مراحل متتابعة أو حلقات متكاملة يصعب فصل بعضها عن بعض، وهذا يدل على أن كل معرفة جديدة صدرت عن المعارف السابقة عليها، فالنتائج التي يُتوصل إليها في بحث سابق، تكون هي نفسها المقدمات التي يبدأ منها بحث لاحق، لكن هذا التفسير التاريخي لتطور المعرفة لا يمنع من القول بأن الكثير من الإكتشافات لم تكن لتقوم لولا تجاوزها لما سبقها من معارف.[4]

---

* الكوزمولوجيا Cosmology (علم الكونيات) هي مجموعة الدراسات العليا المؤلفة من الحساب والموسيقى والهندسة والفلك والتي يشتمل عليها المنهج التعليمي بين درجتي البكالوريوس والماجستير في جامعات القرون الوسطى بأوروبا.

[1] برينتون كرين، تشكيل العقل الحديث، (ترجمة: شوقي جلال)، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1984، ص 120.

[2] نفس المرجع السابق، ص 121.

[3] زكريا فؤاد، التفكير العلمي، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1978، ص 148.

[4] نجيب زكي محمود، جابر بن حيان، مصر: دار مصر للطباعة، 1961، ص 71.

وهناك فريق آخر من المفكرين يرون أن تطور المعرفة يكون نتيجة التعارض بين الفروض والمقولات السابقة وبين ما يُكتشف لاحقا، أي أن النتائج التي يُتوصل إليها كثيرا ما تنقضها الوقائع فيما بعد وتاريخ تطور المعرفة حافل بمثل هذه التناقضات التي تدل على انفصال مراحله وتباين حلقاته، ومن هنا كان للمعرفة طبيعة جدلية التي هي الطبيعة الوحيدة التي تفسر نموها وتطورها وتقدمها، وهذا التطور محكوم على أساس الكشف عن الأخطاء الكامنة في المعارف السابقة، وهذا ما ذهب إليه كل من باشلار (Gaston Bachelard) الذي جعل النقد شرطا ضروريا لتأسيس أي معرفة جديدة، وكذلك بوبر (Karl Popper) الذي يرى بأن تطور المعرفة لا يتقدم إلا بتفنيد النظريات الخاطئة. على أن هناك فريقا ثالثا من المفكرين يرون أن تطور المعرفة وتقدمها ما هو في الحقيقة سوى دوران معرفي وما هو أيضا إلا محاولة لإعادة إنتاج لما هو قديم في ثوب جديد، أي قولبة القديم من المعرفة في شكل مقولات ونظريات حديثة تخضع للوقائع الجديدة.

أ- المنظور التراكمي

ساد لمدة طويلة قبل القرن العشرين الإعتقاد النمطي أن المعرفة والعلم يتطور بشكل تراكمي مستمر ومتصل، فالعلماء يصوغون النظريات ثم يثبتونها أو ينفونها بناء على الإختبار التجريبي لتنبؤاتها المشتقة من النظريات ذاتها. وللقيام بهذه المهمة يحتكم العلماء إلى إجراءات علمية تحدد ضوابط الأمانة الفكرية، والنقد المنظم، والموضوعية، فعندما تخفق نظريات قديمة تصاغ أخرى جديدة ويتم تبنيها لقدرتها التفسيرية الأقوى.

ومما رسخ هذا المفهوم النمطي هو نشأة الوضعية المنطقية* التي كانت متزامنة مع ثورة هائلة للتقدم العلمي وتسارع اكتشافاته بقوة مؤكدين أنه لا منطق للكشف العلمي، والتقدم العلمي في منظورهم أحداث متعاقبة ويمكن وصف وتبرير نمو المعرفة العلمية على أنها عملية تراكمية متصلة ومتدفقة بسلاسة، حيث الوقائع الإمبيريقية التي تكتشفها عمليات الملاحظة والتجريب تؤدي إلى الجديد وتلزم بتنقيح الفروض أو تعديلها وبالتالي تضاف إلى معارفنا المتراكمة بالعالم،[1] وتؤكد الوضعية المنطقية أن النوع الوحيد الصادق من المعرفة هو المعرفة التراكمية وهو النوع المألوف في علوم بعينها وليس كل العلوم، حيث أن هناك عملية متصلة لهذا النوع من المعرفة وقد تحققت واكتملت تدريجيا عن طريق العلماء الغربيين وأصبح بإمكان الباحث من خلالها أن يختبر صدق أي فرضية يزعم قائلها أنها تشكل معرفة ومهما طالت عملية الإختبار تلك فإنه سيتمكن في النهاية من مدى صدقها أو زيفها.[2]

والعلم هو معرفة تراكمية ولفظ التراكمية هذا يصف الطريقة التي يتطور بها العلم، وقد يبدو هذا الوصف أمرا طبيعيا بالنسبة إلى أي نوع من النشاط العقلي للإنسان ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى أنواع معينة من ذلك النشاط فقد عرف الإنسان منذ العصور القديمة نوعا من النشاط العقلي قد يبدو مشابها للمعرفة العلمية وهو

---

* الوضعية المنطقية أو التجريبية الوضعية هي حركة فلسفية ظهرت في ألمانيا و النمسا في العقد الثاني من القرن العشرين، و تهتم هذه الحركة بالتحليل المنطقي للمعرفة العلمية، حيث تؤكد أن المقولات الميتافيزيقية أو القيمية فارغة من أي معني، و بالتالي لا تعدو كونها تعبر عن رغبات وتمثل الوضعية المنطقية إحدى فلسفات العلوم التي تستند إلي رأي يقول أنه في مجال العلوم الإنسانية والإجتماعية كما في مجال العلوم الطبيعية، فإن المعرفة الحقيقية هي التي تستمد من التجربة الحسية الواقعية.

[1] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ديسمبر 2000، ص 381.

[2] كرين برنيتون، تشكيل العقل الحديث، (ترجمة: شوقي جلال)، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، أكتوبر 1984، ص 321.

المعرفة الفلسفية لكنها لم تكن تراكمية، بمعنى أن كل مذهب جديد في الفلسفة لم يكن بالضرورة منطلقا من حيث انتهى مذهب قبله.

أما في حالة المعرفة العلمية فإن الأمر يختلف، إذ أن كل نظرية علمية جديدة تحل محل النظرية القديمة والوضع الذي يقبله العلماء في أي عصر هو الوضع الذي يمثل حالة العلم في ذلك العصر بعينه ولي في عصر سابق، وتصبح النظرية العلمية السابقة بمجرد ظهور الجديدة أمرا تاريخيا يهم مؤرخ العلم وليس العالم نفسه، وتكشف لنا سمة التراكمية هذه عن خاصية أساسية للحقيقة العلمية وهي أنها نسبية، فالحقيقة العلمية لا تكف عن التطور، ومهما بدا في أي وقت أن العلم قد توصل في موضوع ما إلى رأي نهائي مستقر فإن التطور سرعان ما يتجاوز هذا الرأي ويستعيض عنه برأي جديد.[1]

ومجمل القول أن المعرفة العلمية متغيرة حقا ولكن تغيرها يتخذ شكل التراكم، أي إضافة الجديد إلى القديم، ومن ثمّ فإن نطاق المعرفة التي تنطلق من العلم يتسع باستمرار، كما أن نطاق الجهل الذي يبدده العلم ينكمش باستمرار، ومن هنا لم يكن انتقال العلم إلى مواقع جديدة على الدوام علامة من علامات النقص فيه بل إن النقص يكمن في تلك النظرة القاصرة التي تتصور أن العلم الصحيح هو العلم الثابت والمكتمل.[2] هكذا إذن يكون العلم تراكمي في طريقة تطوره وهو بمثابة البناء حيث كل نظرية علمية جديدة تُبنى فوق النظريات القديمة إن لم تنفيها وتحل محلها.

ب- منظور القطيعة المعرفية

تعني القطيعة المعرفية أن التقدم العلمي مبني على أساس قطع الصلة بالماضي، فهي شق طريق لم يتراء للباحثين القدامى بحكم حدودهم المعرفية السابقة الأضيق والأكثر قصورا، وهذا ليس معناه نفي الماضي وإنكاره والتنكر له، فذلك غير وارد في التقدم العلمي الذي يمتاز عن أي تقدم آخر بأنه ليس أفقيا بل رأسيا يرتفع طابقا فوق طابق، القطيعة لا تعني أن التقدم مجرد تواصل ميكانيكي أو استمرار تراكمي لمسار الماضي أو تعديله أو إضافة كمية له بل هي خلق وإبداع معرفي وعلمي جديد تماما، والجدّة هنا هي بؤرة التقدم والإنفصال عن ماضي النظريات والعلم والإضافة الحقيقية لحاضره.[3]

1- منظور غاستون باشلار:

القطيعة المعرفية هي عبارة عن قفزات نوعية تحدث في تاريخ العلوم، وتحدث القطيعة الإبستيمولوجية عند نشأة علم جديد أو نظرية علمية جديدة قاطعة للصلة مع ما سبقها من علوم ومعارف، إن القطيعة هي ميلاد علم جديد غير مرتبط بما قبله ولا تعبر القطيعة الباشلارية عن تغيير مفاجئ إنما المقصود المسار المعقد الذي

---

[1] فؤاد زكريا، مرجع سابق، ص ص 16–17.

[2] المرجع نفسه، ص 19.

[3] يمنى طريف الخولي، المرايا المحدبة، ص 392.

يتكون في أثنائه نظام معرفي لم يعرف من قبل، والنظريات المستجدة في كل عصر لا يمكن النظر إليها على أنها استمرار للنظريات العلمية السابقة بل لا تمت إليها بأي صلة علمية ومنهجية.

ويعدّ باشلار من أشد المفكرين حرصا على إبراز الطابع الثوري للتقدم العلمي، إذ يرى أن الخطأ أساسي وأولي وهو الذي يظل مسيطرا على العقل البشري ما لم يعمل هذا العقل على إزاحته من مواقعه واحدا بعد الآخر بجهد وصراع وكفاح لا يتوقف، فكل حقيقة لابد أن تُكتسب بنوع من النضال وكل معرفة لابد أن تحتل مواقع الجهل، ولذلك فالتقدم في العلم يتم من خلال صراع بين القديم والجديد ولا يتم إلا من خلال التطهير المتواصل للأخطاء لأن المعرفة لا تسير وفقا لخط ميسر مباشرة إلى الحقيقة بل تسير في خط متعرج بين الخطأ والصحيح، هكذا نلاحظ أن فعل المعرفة ينطوي في حد ذاته على ثورة ذلك أن الصرامة العلمية لا يمكن تحصيلها إلا من خلال السلب المنظم الذي يصارع القديم ويرفضه ويُعبر عما يطرأ على العلم من تحولات أساسية عندما يعيد النظر في مفاهيمه الكبرى ويعيد قراءتها، وبالتالي يُصر هنا باشلار إصرارا على رفض فكرة الإتصال في تطور العلوم، فمراحل تطور المعرفة العلمية تتصف أساسا بالإنفصال والقطيعة سواءا في صورتها أو في مضمونها.[1]

وليس المقصود بالقطيعة الإبستيمولوجية ظهور نظريات أو مفاهيم وإشكاليات جديدة وحسب، بل إنها تعني أكثر من ذلك، إنها تعني أنه لا يمكن أن نجد أي ترابط أو بين القديم والجديد وأن ما قبل وما بعد يشكلان عالمين من مختلفين من الأفكار، ولما كانت القطيعة بهذا المعنى خاصية نوعية لتطور العلوم أي لما كان ما قبل القطيعة وما بعدها يختلفان جذريا أحدهما عن الآخر فإن تأريخ العلوم يصبح حينئذ عبارة عن سلسلة من الحقائق أو الأخطاء المتعاقبة أي إن تأريخ العلم هو تأريخ لما يعارضه العلم. ولقد أبدت فكرة القطيعة فعالية جمة في تجسيدها للتقدم كثورة تنفصل عن الماضي وتبدأ طريقا جديد، وقد شهدت استغلالات وتطبيقات كثيرة في مجالات شتى عبر القرن العشرين، استخدمها ميشال فوكو للفصل بين الحقب المعرفية كما استخدمها لويس ألتوسير للفصل بين التشويه القائم بين الأيدويولوجيا والعلم. هكذا إذن يرى باشلار أن الفكر العلمي هو الإبداع الحقيقي وإنشاء الموضوعية، وأن مستنداته الحقيقية هي التصحيحات والتعديلات وتوسيعات الشمولية، وعلى هذا النحو يُكتب التاريخ الحركي للفكر، فالمفهوم يحظى بمعنى أكبر في تلك اللحظة بالذات التي يتغير فيها معناه وحينها تصبح حدثا من أحداث إنشاء المفاهيم، انفصالا جديدا في تاريخ العلم وحركية تقدمه التي أسرف باشلار على إبراز ما فيها من انفصالات التي تبلغ الذروة في مفهوم القطيعة المعرفية.[2]

2- منظور توماس كوهن:

وقضية التعارض بين النظريات الجديدة والقديمة أو الإنقطاع بينها هي قضية تتعلق بنظرية المعرفة مثلما تتعلق بقضايا منهج البحث العلمي، وهذان هما جوهر العلم الحديث ومعيار التمييز بين ما هو علمي وما هو غير أو قبل علمي وهما بالتالي أحد معايير التقدم العلمي ومن ثم الحضاري، والظاهرة الطبيعية أو الإجتماعية قد تكون

---

[1] يمنى طريف الخولي، مرجع سابق، ص 389.

[2] يمنى طريف الخولي، مرجع سابق، ص ص 391-392..

واحدة ولكن الفارق الجوهري هو فارق معرفي من حيث محتوى العرفة ومنهج البحث الذي يقرّه العلم الحديث وبدونه تسقط عنه صفة العلمية.[1]

إن المعرفة والعلم ظاهرة تاريخية بمعنى اعتمادها على عوامل وعناصر وأسس تاريخية معينة، قادت لظهورها ونشأتها الأولى، وأغلب الكتب المراجِعة تبدأ دراساتها منذ الإغريق الأوائل، ولا تعود في دراستها إلى الشعوب الشرقية القديمة (عرب وهنود وفرس وسومريين وأكاديين)، مع أن الظاهرة إنسانية بعمومها وشمولها وانتشارها بين كافة شعوب العالم، في كل زمان ومكان، والمعرفة العلمية الحديثة التي أرسيت أسسها في الفترة ما بين 1450–1700م هي خلاصة جهود المفكرين في الغرب وثمرة أبحاثهم. وهناك علاقة بين المعرفة والعلم وبين التاريخ وهما يخضعان لنظرتين من ناحية التطور والتراكم المعرفي في فهم وتفسير العالم والطبيعة والكون والظواهر الإنسانية، في النظرة الأولى والتي يمكن أن نطلق عليها النظرة القديمة، والثانية هي النظرة الحديثة، كما توجد هناك أيضاً نظرة معاصرة للعلم، وقد لعبت الفلسفة دورا حاسماً في هذا التطور.[2]

لعبت مناهج البحث دوراً فعالاً في تطور المعرفة والعلم، فقد كانت المناهج تنحو صوب تدريس العلوم التقليدية ويغلب عليها طابع الشروح والتفاسير، التي تهدف للحفظ والتكرار وليس للإبداع والإبتكار، وهذا ما ساعد أصحاب النزعة الإنسانية بالمناداة بشق طرق جديدة وأساليب مبتكرة في تناول المعرفة والعلم وفهمه وتفسيره، واستطاعت النزعة الإنسانية أن تعيد الإعتبار للإنسان ومكانته في الكون، والتي دفعت بالفنون والآداب والفلسفة والشعر والقيم والأخلاق نحو مستويات جديدة في الإعتبار، أما عن أثر العوامل الإجتماعية في نشأة المعرفة العلمية فتنصرف باتجاه التفسير الإقتصادي للتراكم المعرفي، فقد انطوت النظرة القديمة للمعرفة العلمية في حيز ضيق، أما النظرة الجديدة فارتبطت بالنهضة الصناعية كنظام سياسي، كل هذه العوامل التاريخية التي ساهمت في تغيير النظرة القديمة إلى الحديثة وفي نشأة المعرفة العلمية الحديثة يمكن اعتبارها جزءاً يسيراً مما أطلق عليه توماس كوهن بـــ (النموذج المعرفي)، وانتقال التراكم من نظرة إلى أخرى، أو نموذج لآخر، يطوي في مكنوناته مجمل العوامل التي يمكن أن تقلبه إلى ضده أو نقيضه، وتلعب الكليات الجامعية لتاريخ العلم وفلسفة العلم ومناهج العلوم دورا مهما في الطرح الصحيح لفهم كيف تتطور المعرفة والعلم، وربما يرجع الضعف المعرفي العلمي لدى الكثير من الدارسين إلى عدم التبصر بهذه الآليات والعوامل المنشئة للعلم.[3] وبقيت النظرة شائعة عن تراكمية المعرفة حتى جاء كوهن لينسف ذلك الإعتقاد من خلال تأكيده في كتاب "بنية الثورات العلمية" على أن العلم لا يتقدم من خلال التراكم وإنما من خلال ثورات متعاقبة تحدث على مستوى النموذج المعرفي "Paradigm" الذي عنى به تقليدا متماسكا للقوانين العلمية، والنظريات، والفرضيات والمقاييس والمناهج والممارسات التي تشكل اقترابا متميزا للمشاكل التي تواجه حقلا معرفيا ما.

---

1 توماس كوهن، بنية الثورات العلمية، ص 16.

2 محمد العدوي، (العلم بين الفلسفة والتاريخ والدين)، الفكر السياسي، دمشق: المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات، العدد 18، خريف–شتاء 2001، ص 179.

3 نفس المرجع السابق، ص ص 180–181.

ويثبت كوهن أن المجتمع العلمي لا يملك تفسيرات جديدة لما يلاحظه العلماء، وبالأحرى هم يرون الأشياء من منظار مختلف، وهذا الإختلاف في التفسير أو النموذج المعرفي الجديد هو إدراك مشابه من منطلق أن نفس الرؤية بإمكانها أن تتطور وتتراكم نحو اتجاهات معرفية مختلفة وبإمكانها أن تكون مستقلة عن الأصل،[1] لكن تأكيد كوهن على المجتمعات المعرفية والفواعل غير المتجاورة في تطور العلم، فهو بوضوح يُغري علماء العلوم الإجتماعية وبالأخص علماء اجتماع المعرفة مثلا، ونظرته حول التراكم المعرفي على أنه بناء يُستكشف من خلال بناء آخر يأتي بعده تعرضت إلى الكثير من التحديات والإنتقادات عبر العقود التي تلت نظريته حول تطور المعرفة العلمية، لكن هذا لا ينفي الزخم الذي أضفته حول تاريخ تطور المعرفة بصفة عامة.[2] وعلى الرغم من أن كوهن لم يقل الكثير حول العلوم الإجتماعية، إلا أن العديد من الباحثين في هذا المجال سرعان ما وضعوا يدهم على حججه بهدف تقوية الأسس التاريخية والتنظيمية والإجتماعية لاختصاصاتهم المختلفة وتوضيحها.[3] وربما أن نظرية كوهن تصب في مجال العلوم الطبيعية، كالفيزياء والكيمياء والرياضيات وسواها، لكنها في مجال العلوم الإنسانية والإجتماعية، لا تحقق نفس النجاح السابق، لأن النظريات العلمية حول المسائل الإنسانية والإجتماعية تتكامل وتتعاون، فهي لا تنسخ بعضها أو تثور على أضدادها بل تتقوى وتشتد من بعضها. بديهي أن البحث العلمي يقوم على مجموعة من الركائز كالإستنتاج، الفرضية، المنهج، وغيرها من العناصر مثل الإستقراء والحدس.

3- منظور ميشال فوكو:

لا تعني القطيعة أوالإزاحة المعرفية الإنفصال النهائي عن الماضي والتراث أو الدعوة لإهمال ما أنتجه القدماء من أفكار ومعارف ونظريات وفنون وأساليب، بل إن القطيعة المعرفية نتيجة حتمية للتطور التاريخي العام في مجتمع ما أو بيئة معينة، إما لأن البنيات الإجتماعية وأطر الإنتاج والسلطة والمعرفة انحلّت وتفككت، وإما لأنها تضخمت وازدهرت وقفزت قفزات أبعد واكتسبت وسائل مالية وعلمية أغزر وأصلح.[4]

ويُعتبر فوكو (Micheal Foucault) أحد أبرز المفكرين المعاصرين الذين درسوا إشكالية المعرفة من حيث أصولها وديناميات تطورها والعلاقة بينها وبين نواتج الفكر والنشاط الإنساني، وهو يميز بين ظاهرتين ومرحلتين، الأولى هي مرحلة النقد التي هي عبارة عن هجمات مبعثرة ومتقطعة لمرجعية كيان معرفي ما، وهو الأمر الذي يؤدي إلى توالد ضخم لنقد الأشياء والمؤسسات والممارسات الخطابية مما يمهد الطريق إلى نوع من التفكك العام في الأرضية الأصلية، وكل هذا لا يعني نوع من التجريبية الساذجة بل هو ميزة أساسية تشير واقعيا إلى نوع من الإنتاج النظري غير المركزي؛ والمرحلة الثانية هي ما يمكن تسميته عودة المعرفة، وما يحدث وينتج هو عبارة عن انتفاضة المعارف الخاضعة التي هي جملة وكتل من المعارف التاريخية الحاضرة والمختفية والمقنّعة داخل

---

1 Encyclopedia of Sociology, (Edgar F. Borgatta and others), op. cit, p 2025.
2 Ibid, p 2026.
3 مارتن غريفيش، وتيري أوكالاهان، ص 199.
4 محمد أركون، من فيصل التفرقة إلى فيصل المقال... أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، (ترجمة: هاشم صالح)، بيروت: دار الساقي، 1995، ص 07.

المجموعات الوظيفية والنسقية، والتي أظهرها النقد بواسطة المعارف والعلوم المهمة.[1] كما يشار إلى المعارف الخاضعة بوصفها سلسلة من المعارف غير المؤهلة كمعارف مفهومة، أي كمعارف غير كافية وغير مشكّلة وتحتل مكانة دنيا من الناحية التراتبية، إنها معارف تحتية مقارنة بالمعارف والعلوم المكتسبة أو المحققة، وبظهور هذه المعارف غير المؤهلة يحدث النقد. وفي الحقل الخاص بالمعرفة غير المؤهلة تتشكل ما يمكن تسميته بالجينيالوجيا، التي هي البحث في المجالات التي تشكل تحوّل بداية وأصل المعرفة، من خلال الإهتمام بمسألة الإنفصال والقطيعة واللاإستمرارية، هذه الأخيرة هي مزاوجة بين المعارف العميقة ومعارف الناس ولم تكن ممكنة إلا ضمن شرط أساسي هو إزاحة ورفع طغيان الخطابات الكلية مع تراتبيتها وأفضلياتها كطلائع نظرية.[2]

ويرفض فوكو إضفاء طابع علمي من طراز علمية الفيزياء والكيمياء على خطاب العلوم الإنسانية، فهو خطاب يصور العالِم الإجتماعي قابلا على نحو شفاف للفهم والترشيد العقلاني من حيث الإمكان، بل ويمكن جعله منسجما متسقا من خلال قرارات إدارية وهندسة اجتماعية وتقنيات مستمدة من تحليل أداتي عقلاني للوقائع الصلبة العنيدة ولمساراتها التاريخية الحتمية المتحقق منها.[3] ولقد اضطلع فوكو بمهمة الإجابة عن هذا التساؤل: كيف بدأت النظريات والمعارف؟ وماهي الشروط التي حتمت ظهورها؟ كما يتسائل عن مجال ظهور المعرفة بصفة عامة والمعرفة العلمية بصفة خاصة. وهو بذلك يكشف عن مجال جديد للبحث الإبستيمولوجي، وقد أسس تخصصا جديدا أسماه أركيولوجيا المعرفة (حفريات المعرفة)، وكلمة أركيولوجيا هنا وهي تعني علم الآثار، لا تشير عند فوكو إلى علم جديد يبحث عن الأصول الأولى، بل هي تشير فقط إلى خطة إبستيمولوجية تستهدف إعادة النظر في المعرفة، وتكشف عن صور للتعقل تبرر استخدام مفاهيم العلم، كما تبحث عن نسق مستتر وراء المفاهيم في العديد من التخصصات المعرفية.[4] والتسليم بأن العلم هو تكدس للحقائق في استمرارية ونمط تراكمي إنما يعني تجاهل ممارسة الفكر والخطاب بما لها من مستويات وعتبات وقطع متعددة، ولهذا ينبه فوكو في مواضع كثيرة إلى أن تلك الممارسات التي سادت في العصر الكلاسيكي لا ينبغي النظر إليها على أنها إرهاص أو تسبيق للعلوم التي ظهرت في العصر الحديث بحيث تصبح هذه الأخيرة امتدادا لأبحاث سابقة عليها، وهنا تكمن نظرية الإزاحة المعرفية.[5]

ويرى فوكو أن فهمنا لتطور المعرفة مرتبط بفهمنا للإبستيمية، فهي مجمل العلاقات التي قد تربط في وقت معين بين الممارسات الفكرية التي تفسح مجالا لأشكال إبستيمولوجية ولعلوم، وعند الإقتضاء لأنظمة معقدة، الإبستيمية ليست نوعا من المعرفة أو نمطا من العقلانية يعبّر باجتيازه العلوم الأكثر تنوعا عن الوحدة المطلقة لموضوع ما، لعقل ما لعصر ما، إنها مجمل العلاقات التي يمكن اكتشافها بين العلوم في وقت معين، عندما نحللها

---

1 ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، (ترجمة: الزواوي بغورة)، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2003، ص 34.

2 نفس المرجع السابق، ص ص 35-36.

3 بول فين، أزمة المعرفة التاريخية، فوكو وثورة في المنهج، (ترجمة: إبراهيم فتحي)، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1998، ص 06.

4 جعفر عبد الوهاب، البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو، الإسكندرية: دار المعارف، 1989، ص 24.

5 نفس المرجع السابق، ص 261.

على مستوى الإنتظامات الخطابية.[1] وأي فرع معرفي ما من فروع المعرفة ينكب البحث حاليا على رصد عواقب الإنقطاعات التي تتباين تباينا كبيرا فيما يخص طبيعتها وصفتها، مثل الأفعال والعتبات الإبستيمولوجية التي وصفها "غاستون باشلار"، والتي تقطع الطريق أمام التراكم اللامحدود للمعارف، وتوقف نموها البطئ وتزج بها داخل زمن جديد وتفصلها عن مصدرها الإختباري ودوافعها الأصلية، وترصد نمط جديد من المعقولية وتسيطر على تحول المفاهيم وانتقالها من خلال تلك الإنقطاعات.[2] ولقد أثرت الثورات العلمية المتلاحقة في بدايات القرن العشرين في ذهنية المفكرين والعلماء خاصة خلال الثورة العلمية الكبيرة في مطلع القرن العشرين، ولذا يقول مارك بلوخ "إن الحالة الذهنية للعلماء لم تعد كما كانت، لقد تغيرت فكرتنا التي تكونت بالأمس عن العلم"، هكذا إذن أصبحت القطيعة والثورة العلمية جزءا من ذهنية العلماء والمفكرين منذ بدايات القرن العشرين الذين كان حضور التطور العلمي الهائل مؤثرا في طريقة تفكيرهم.[3]

ثانيا: تطور علم السياسة

من الواضــح أن علم السياسة منذ التقاليد الأرسطية الإغريقية القديمة يعكس رؤية معرفية متمركزة حول الذات الأوروبية، وعندما احتضــنت المدرسة الأمريكية علم السياسة المعاصر خلال القرن العشرين أصبح هذا العلم أكثر ارتباطاً بواقع المجتمع الأمريكي ومشكلاته، وهو ما أثر يقيناً على التحولات المعرفية التي شهدها علم الســياســة منذ ذلك الوقت. فالثورة الســلوكية التي ارتبطت بتقاليد الفلسفة الوضعية أحدثت نقلة نوعية في علم الســياســة الذي تأثر في نهاية الخمســينات والســتينات بمفهوم النظرية الكبرى والعامة والأخذ بعين الإعتبار التحولات التكنولوجية والإجراءات العقلانية.

ويلاحظ المتابع لتاريخ تطور علم السياسة أن الطابع الفلسفي قد طغى بشكل كبير على دراسة السياسة منذ العصــور الكلاســيكية وحتى بداية العصور الحديثة، حيث كان ينظر للسياسة طوال تلك الفترة على أنها حقل معيــاري وقيمي، وبالتالي كانت في أوقات كثيرة فرعا للفلســـفة الأخلاقية. وكما هو حال معظم الفكر ما قبل الحديث لم تعر السياسة اهتماما كبيرا بالمسائل الإمبريقية حيث أنصب معظم اهتمام المفكرين السياسيين على ما ينبغي أن يكون بدلا مما هو كائن، وكان من أهم المواضـــيع التي حظيت باهتمامهم تلك المتعلقة بطبيعة الدولة المثالية، والعلاقة المناسبة بين الأهداف الإنسانية الروحية والزمنية، والغايات المطلقة للحياة السياسية. ومع ذلك، فقد كان هناك دائما من شـــذ عن الاتجاه الســـائد ونذكر هنا على ســـبيل المثال كل من أرســـطو وابن خلدون وميكافيلي الذين اشـــتهروا بدراساتهم الدقيقة للعملية السياسية الواقعية. إلا أن مجال علم السياسة لم يتسع بشكل كبير خارج حدود الإطار الفلسفي إلا منذ وقت قريب. ويعود أحد الأسباب الرئيسة وراء هذا التوسع إلى ظهور المدارس الفكرية القانونية–المؤسساتية والتاريخية خلال القرون الثلاثة الماضية حيث أضافت هذه المدارس ثراء

---

[1] عبد العزيز العيادي، ميشيل فوكو المعرفة والسلطة، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1994، ص 16.

[2] ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، ص 06.

[3] حيدر جاسم الدبيسي، التجديد في المنهج والتأريخ الجديد لدى ميشيل فوكو، لبنان: دار الروافد الثقافية، 2016، ص 130.

المنظورات القضـــائية والتطورية إلى التقليد الفلســـفي للبحث السياسي. وبدأ حقل السياسة في دراسة الدول من خلال قوانينها العامة، وأطرها الدســـتورية وبناءاتها الرسمية فضلا عن الاهتمام بتطورها المؤسساتي ومحاولة فهم التجارب التاريخية الفريدة لكل دولة.

وبـــالرغم من ذلك، فقد كانت هذه التغيرات محدودة نســـبيا عند مقارنتها بالتحول الكبير الذي طرأ على دراســـة الســـياسة منذ القرن العشرين، وخاصة النصف الثاني منه. حيث بدأ علماء السياسة، تحت تأثير الثورة العلمية وعلى ضـــوء نجاحها المذهل في العلوم الطبيعية، يحلمون بتحقيق اختراق في العلوم الاجتماعية، مماثل لذلك الذي أحدثته ثورة نيوتن في الفيزياء، لكي يحررهم من ســـيطرة التقليد الســـائد في الحقل آنذاك الذي كان بنظرهم منغلقا ومفتقرا للصـــرامة العلمية. ومع أن مثل هذا الحلم كان حاضـــرا منذ بدايات القرن التاسع عشر متمثلا في كتابات (أوجســـت كونت ودوركهايم) الوضـــعية إلا أن مشروع إعادة صياغة علم السياسة علميا لم ينطلق بقوة إلا في منتصف القرن العشرين المنصرم مع ما أصبح يعرف في أوساط العلم "بالثورة السلوكية".

وبالرغم من بداياته القوية واجه ذلك المشروع تحديات كبيرة بعد مرور أربعة عقود على انطلاقه خاصة من طرف حركة مابعد الســـلوكية وما أفرزته من مفاهيم ومقاربات جديدة في علم الســـياسة، وهي إن لم تكن نجحت في القضـــاء عليه فقد أفقدته بريقه وتألقه بالتأكيد. لكن بغض النظر عن مستقبل الطموحات العلمية في دراسة السياسة إلا أن الطاقة الأكاديمية التي أطلقتها الثورة السلوكية كانت هائلة حيث ازدهرت اقترابات جديدة واكتشفت طرق جديدة للبحث وانتشرت مناهج وطرق غير مألوفة سابقا. بل إن معظم اقترابات دراسة السياسة التي لا تزال معنا حتى اليوم مثل الوظيفية ، والنظريات الســـبرنطيقية، والتحليل النسقي، ونظريات المباريات، والاقترابات النفســـية وغيرها، قد تمت صياغتها خلال فترة العشرين سنة من خمسينات وحتى سبعينات القرن العشرين المنصرم.